الروح هو الذي يُحيي الجسد

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

قال الربُّ يسوع في الفصل السادس من إنجيل يوحنا الإنجيلي "الجسد لا يُجدي نفعاً، الروح هو الذي يُحيي". خلقَ اللهُ الإنسان خِلقةً فريدةً جداً بعدما خلقَ كل الأشياء والحيوانات، خلق الإنسان متفرِّداً في هذا الكون عن كلِّ ما في هذا الكون.

الإنسان وحده ذو شخصية، ذو قوى روحيّة وعقليّة، بينما الحيوانات جميعاً بلا روحٍ، بلا قوى روحية، بلا شخصٍ ولا شخصية، بلا فكرٍ يُمجّدُها. والانسانُ هو سيّدُ هذا الكون، كل الأشياء تخضع له. قال يعقوب الرسول إن الانسان طوّعَ كل الأشياء، طوّعَ الحيوانات وصارت أليفة. الإنسان يُدجّن الحيوانات المفترسة وهو سيِّدٌ على كلِّ الخليقة وهو يسودُها بعقلِه الجبّار وبقواه العقليّة الجبّارة. الحضارة والمدَنيّة والثقافة والفكر وكلُّ شيء هو من صنع الإنسان. ماذا تصنع النجوم رغم ضخامتها؟ كم النجوم أكبر من الأرض؟ هل صنَعت ورقة حشيش؟ لا. فالخلقُ على الأرض هو مَن صنع الإنسان، ولكن الإنسان مركّبٌ بصورةٍ مذهلة. هو شخصٌ في روحٍ وجسد. وبسبب السقوط والخطيئة، هناك حربٌ بين الروح والجسد. والجسد هنا ليس بمعنى اللحم بل بمعنى الشهوات، بمعنى السقوط.

قال بولس الرسول في الفصل الخامس من رسالته الى أهل غلاطية "الروح يشتهي ضد الجسد والجسد يشتهي ضد الروح" وهذا ما وسّعَه في الفصل السابع والثامن من رسالتِه الى أهل رومية. فهناك حربٌ روحية بين الروح والجسد. الروح يشتهي ما هو فوق، والجسد يشتهي ما هو في الأرض. الجسدُ مرتبطٌ بشهواتِه الأرضيّة وبملذاتِه.

الطفل منذ أيامِه الأولى مرتبطٌ بالحليب، مرتبطٌ ببطنِه، يكبُر وهو مرتبطٌ ببطنِه. إنما التفتُّح الروحي يفتح أمامه آفاقاً أخرى.

الحرب بين الروح والجسد مستمرّة. رواسب الطفولة تجعل الإنسان عبداً لحاجاتِه الجسدية، والجسد يفرض علينا مراعاتَه لأننا إن لم نأكل نمُت والطعام ضروريٌّ لحياة الجسد. الطعام والملبس ضروريان والإنسان يكُدُّ في حياتِه ليضمن لنفسِه هذه الحاجات، ولكن هده الحاجات قد تُسيطر عليه فيتوهّم أن الوجود هو وجودٌ جسديٌّ مرتبطٌ بهده الضروريات. لا، الإنسانُ أسمى من ذلك بكثير.

الإنسان مخلوقٌ على صورة الله ومثالِه، الإنسان مدعوٌّ ليرثَ ملكوت السماوات، الإنسان مخلوقٌ لا ليفنى في القبر بل لتستمرَّ روحُه بعد القبر. الموتُ يفصلُ الروحَ من الجسد ولكن الجسد لا يفنى فيبقى جسداً، ينحلُّ الى موادِّه الترابية وسواها ولكن يبقى موجوداً.

الروحُ الأسمى من الجسد، تبقى موجودة. لا يمكن أن تفنى وليس في الكونِ ما يفنى. تنحلُّ العناصر وتذوب ولكن ليس من فناءٍ في الطبيعة بمعنى أنه لا يعودُ موجوداً فكلُّ شيءٍ يستمر بصُوَرٍ مختلفة. يتبدَّل، يتغيَّر ينحل، ولكن الفناء الحقيقي بمعنى الزوال المطلق من الوجود فهذا غيرُ موجود. الروح هي أسمى من الجسد بمقدار ما السماء أسمى من الأرض، الروح لا تزول فتبقى حتماً.

المصيبة الكُبرى هي في سقوط الإنسان الى الجحيم بواسطة الحواس، بواسطة الجسد، فيتوهَّم أن المنظور والمسموع والملموس هو الحقيقة. هل نستطيع أن نلمُس الروح، هل نستطيع أن نرى الروح، أن نرى الفكر، أن نرى القِوى الروحية؟ البشر يُفكِّرون. وقد بلغَ العِلمُ في أيامِنا هذه شأناً عظيماً جداً، فهل نستطيع أن نرى العِلمَ بالعيون؟ هل نستطيع أن نقرأ الفِكرَ في الجسد، في الدماغ، في أيّ مكانٍ من الجسد؟ لا. الجسدُ أداةٌ بيَدِ الروح فقط ولكن نُصابُ بالسقوط فنتوهَّم أن الجسد هو الحقيقة، وأن الحقيقة يجب أن تخضع للحواس وأن ما نراه ونسمعَهُ ونلمَسُهُ هو وحدَه حقيقيٌّ وما سوى ذلك غيرُ حقيقيّ.

هل المعرفة قابلة للفحص بالمجاهر؟ لنأخذ كلمة المعرفة بكل أبعادِها، من أي نوعٍ كانت (المعارف اليومية، اللاهوتية، العلمية...) هذه المعرفة شأنٌ جسديٌّ ماديٌّ. وهل العِلم شأنٌ ماديٌّ؟ وهل العِبادة شأنٌ ماديٌّ؟ كلُّ ما يتعلّق بالطبقة العليا من الإنسان هو غير مادي. هل الوعي ماديٌّ؟ لا، الوعي غير ماديٌّ ويتميَّز الإنسان بأنه يَعي، وأن يَعي بأنه يَعي وبأنه يَعي من جديد أنه يعي ويَعي ويَعي. فهذه القدرة عند الإنسان على الوعي الشامل غير خاضعة للنظر في العيون وللسمع بالآذان وللمس باليد. ولذلك من عيوب السقوط نزول الإنسان الى مستوى إخضاع كل شيء للنظر والسمع واللمس والشم والتذوّق. هذه جميعاً أدوات بيد الروح.

الجسدُ هو أداةُ الروح، الروح هي التي تُحرِّكُ الجسد، هذا هو الفارق الكبير بين الإنسان والحيوان. الحيوان كائناً حيّاً فقط أما الإنسان فهو كائنٌ روحانيٌّ، الروح تُحيي الجسد وتُحرِّكُهُ والجسد أداةٌ بيد الروح. فأنا أُفكِّرُ أولاً وأعملُ ثانياً وعملي مُرتبطٌ بفكري حتى أثناء النوم لستُ إنساناً بلا فكر، فالأحلام تتضمَّن ذكاءً خفيّاً هائلاً ولذلك يعثرُ تحليلُها خارج ديوان التحليل النفسي. هذه الصعوبة الكبيرة في تحليل الأحلام ذاتُ دلالة كبيرة، أي أن الإنسان ليس حيواناً ابداً بل هو أسمى من الحيوان. الروح هي التي تُحرِّكُ الجسد وتحرِّكُ الإنسان وتقودُهُ في معارك العِلم والثقافة واللاهوت والفلسفة. الروح هي الأساس.

لولا الروح لكان الإنسانُ حيواناً مثل كل الحيوانات بلا حضارة بلا مدنية بلا عشرات الملايين من الكتب التي هي في مكتبات الدنيا كلِّها. هل نستطيع أن نتصوَّر الحيوانات في يومٍ من الأيام تتناول القلم وتؤلِّف كتُباً في اللاهوت والفلسفة والطب وسوى ذلك من العلوم؟

فاذن، الفكر هو الأساس. بدون الفكر بالمعنى العام للفكر، بدون المعرفة بالمعنى العام للمعرفة وبعبارةٍ أقوى، بدون الروح يبقى الإنسانُ حيواناً. فالذي يُميِّز الإنسان اذن هو الروح والقِوى الروحية والعقلية. الإنسان أسمى من أن يكونَ جسداً يزولُ في التراب. هذه القِوى العاقلة التي تُميِّز الإنسان تجعلُه فوق مستوى الأرض.

هذا الشوقُ في الإنسان الى الإمتلاء هو ذو أساسٍ الهيٍّ. هل سيشبع الإنسان من المعرفة؟ أليسَ في الإنسان جوعٌ هائلٌ وهذا الطعام يسدُّ هذا الفراغ عند الإنسان؟ ألا يبقى الإنسانُ دوماً في جوعٍ الى المجهول؟ الإنسان لا يشبع ابداً، يأكل ويبقى جائعاً روحياً. في الصميم لدينا جوع روحي وهل نقبل بالإكتفاء، أما نطلب دائماً المزيد؟ وهل يقنع الإنسان بالشيء البسيط؟ أما يسعى الإنسانُ دائماً الى الإكثار مهما كان نوع الإكثار؟ هناك فراغٌ روحيٌّ في الإنسان، هناك جوعٌ روحيٌّ يجعله دوماً يطلب المزيد ولا يرضى بالواقع بل يطلب دائماً المزيد. روحياً، هو في جوعٍ الى الله.

هل يقنع الغني بالمليار أم يطلب المزيد؟ هذا الجوع الوجودي في صميم الإنسان هو جوعٌ الى الله. لا يمتلىءُ الإنسان حقيقةً الا من الله. يقضي العمر وهو جائعٌ، فيه عطشٌ عميق، الماء لا يرويه. كلما حصل على شيءٍ طلب شيئاً آخر. يطلبُ دائماً أن يزداد، أن يتوسَّع في أعمالِه، في شؤونه، في علمِه، في ثقافتِه. رجل العِلم لا يشبع، ورجل المعرفة لا يشبع، واللاهوتي الروحاني هو الجائعُ الأكبر لأنه يجوعُ الى الله ومَن يستطيع أن يمتصَّ الله؟

فلذلك الروحانيون هم الجياع الحقيقيون. فيهم جوعٌ هائلٌ لا يشبع ابداً، فيهم عطشٌ هائل لا يرتوي ابداً. إنه الجوع والعطش الى الله والله هو الكائنُ الغير المحدود الغير المنظور غير المعلوم الذي لا تُدركه العقول. ولذلك فجوع الروحانيِّين هو الجوع الحقيقي لأنه جوعٌ الى المطلَق، الى الكمال، الى الاله الكامل الذي وحدَه هو الكمال المطلَق، الذي لا تستطيع أن تحدَّه العقول والمدارك والأفهام. لا يرضى الروحاني بشيءٍ بسيط من الإشعاعات الالهية، يطلب أن يسكن الروح القدس فيه سُكنى حقيقية يمتلىء معها من الروح القدس.

والإمتلاء من الروح القدس عملية شاقة تتطلّب جهاداً روحياً مريراً ينتصر فيه الإنسان على الجسد وشهواتِه وأهوائه كما قال بولس في الفصل 5 من رسالتِه الى غلاطية.

الإنسان الروحاني يصلب جسَده وأهواءه. والصليب هو الصليب، فاذا رأينا الناس عبيداً لشهواتِهم الجسدية فهذا لا يدل على أن هذه هي الطبيعة البشرية الحقيقية. الطبيعة البشرية هي أسمى من ذلك، هي في الإرتفاع

فوق هذه الشهوات. ومتى إرتفعنا فوق هذه الشهوات والرغبات والأهواء آنئذٍ نحتكُّ بالشيء السماوي.
ولكن، هل يُمكن أن نجمع الأرضيَّ والسماويَّ؟ لا. يسوع علّمنا لا نستطيع أن نعبُدَ ربَّين الله والمال. لا نستطيع أن نعبُدَ الله والأرض، ولذلك لا بدَّ من الإرتفاع فوق الشهوات الجسدية والأهواء الأرضية لكي نتحوَّل من أُناسٍ ترابيّين أرضيّين الى أناسٍ روحانيّين ممتلئين من الروح القدس. العمليَّة شاقة ولكن كيف العمل وانا موضوعٌ في موقفٍ يتطلّبُ مني الخَيار بين الجَسَداني والروحاني؟
الجَسَداني ينتهي بالتراب بلا أمل بلا رجاء، والروحاني ينتهي في ملكوت السماوات. ما خلَقَنا الله لنفنى كما تفنى الحيوانات. الله له المجد منَحَنا الروح لنعيشَ روحياً. هل مَنحَنا الروح لتفنى الروح؟ لا، مَنحَنا الروح لتبقى الروح ولكن ذلك في عالم الأرواح حيث لا جسد ولا طعام ولا شراب ولا أموال ولا ثروات.
الروح هي خالدة وهذا امرٌ أكيد. لا نستطيع أن نتصوَّر قوى الإنسان العُظمى تفنى وتزول من الوجود كأنها لم توجَد. الله الذي صنعَ الإنسان ما صنعَه ليهلكَ. لماذا الحضارة، المدنية، العِلم، اللاهوت، الفلسفة...إن كان الإنسان يفنى في التراب وتزول روحُه كلياً ولا تبقى بعد الموت. البقاء بعد الموت هو الرجاء الوحيد للإنسان.
قد نُستعبَد للشهوات والأموال وزينة هذه الدنيا وفِتنتها، ولكن في لحظة الموت ماذا تنفعُنا الثروات والأَبنية والقصور والثقافة؟ هل نجا احدٌ من الموت؟ لا. هل يستطيع الطب أن يُنقِذ حياة الإنسان من الموت؟ لا. فاذن بما أن البشر كلُّهم سائرون الى الموت، فالإيمان بالآخرة هو شيءٌ اساسيٌّ في حياة الإنسان. العبادة هي لله لا للجسد والأرض. الذين عبَدوا الجسد والأرض ماتوا بلا رجاء، أما المؤمن فهو يموت وهو واثقٌ بأن الله أعدَّ له ملكوتاً.
الملكوت الأبدي حقيقةٌ مُطلقة. كلُّ إنسانٍ عاقل، كلُّ إنسانٍ رزين، فطِن، حكيم، حاذق، طاهر يصل الى الإعتقاد بالآخرة. أما الإنسان المعقّد، العبد لحواسِّه وبطِنه، فهو بعيدٌ عن الحقيقة المطلقة.
قد حاول البعض أن يرَوا ملكوت الله، أن يرَوا الروح، أن يرَوا الله، هؤلاء هم عبيدُ الحواس. الروح عنصرٌ آخر غير الجسد لا يُمسَك باليد، نشعر به ونَعي أن لنا وجوداً روحياً. كل حياتِنا غير الجسدية هي من الروح. الجسد يأكل ويشرب ويمشي... نعرف أن الأطباء يعرفون الكثير عن جسم الإنسان ولكن هل رأوا المعرفة الالهية والمعرفة العلمية؟ المجاهر عاجزة عن أن تُرينا الفكر.
فاذن، هل يستطيع العلم المادي أن يُمسك شخص الإنسان باليد؟ لا. هذا كلّه وعيٌ داخلي. داخلياً، يعي الإنسان روحه وقواه العقلية. فلذلك الخطر كل الخطر هو في العبودية للمنظورات. نطلب رؤية الله بالعين، نطلب رؤية الروح بالعين. هذا أمرٌ مطروحٌ بصورةٍ خاطئة لأن الله هو من جوهرٍ آخر والروح من جوهرٍ آخر. الله لا يُرى بالعين والروح لا تُرى بالعين ولكن تُرى بالوعي الداخلي.

هل الجسد هو الذي يرتقي روحياً الى الإستنارة الالهية؟ لا. هل الجسد هو الذي يُصلِّي الصلوات الحارَّة فيخطف الله الروح الى السماء كما خطفَ بولس الى السماء الثالثة؟ كل ذلك خارج ميدان الجَسَدانيات. هل حالات القداسة والإختطاف الروحي يدخل في عالم التحقيق بالمجاهر؟ لا. فاذن هناك خطأ شائع وهو التفكير المادي في الشؤون الروحية، فالشؤون الروحية ليست بمادية. الشؤون الروحيَّة روحيَّة، والشؤون الماديَّة ماديَّة. يقع الإنحراف في تطبيق العلوم الماديَّة على العلوم الروحية، فنطلب إخضاع كل شيء للنظر وللمجاهر وللحواس والى البحث العلمي المادي. الروح لا تخضع لهذه الأبحاث. الروح عالَمٌ آخر، أشعرُ بروحي ولكن لا أستطيع أن ألمس روحي فهذا مستحيل. انا كائنٌ روحي وانا أشعرُ به بوعيٍ داخليّ. الوعي الداخلي عند الإنسان لا يخضع للفحوص المادية. ماذا تُعطينا الفحوص المادية؟ امامنا قطعة لحم.أما الروح فهو فوق هذا المستوى. هل نستطيع أن نقول للحيوان يا أخي، يا روحي، يا مُقلةَ عينيّ؟ الحيوان يبقى حيواناً أما الإنسان فهو أخو الإنسان. الإنسان والإنسان الآخر يستطيعان أن يتّحدا روحياً بوحدةٍ روحية إستثنائية. هل المحبة الروحية خاضعة للفحص بالمجاهر؟ لا. هل العشق الالهي خاضعٌ للفحص بالمجاهر؟ لا.

ولذلك يجب التمييز بين الإدراك بالحواس وبين الإدراك بالوعي الداخلي والتفكير الفلسفي والتأمل اللاهوتي. التأمل اللاهوتي يرفعنا فوق المستوى الجسَدي، التأمل الفلسفي يجعلنا نذهب الى أبعد مما هو مرئيٌّ ومسموع، يجعلنا نطرح على أنفسنا الأسئلة ما هو الشيء الواقف وراء المسموع والملموس. متى إنطلقنا في التفكير اللاهوتي والفلسفي وصلنا الى الإيمان بالله حتماً بكلِّ كيانِنا.

الله موجودٌ، هذا الكون من صنع الله لا من صنع ذاتِه. ليس في النجوم والكواكب وكل هذا الكون قوة خالقة تخلَقه بدون الخالق. هذا الكون له بداية وله نهاية، وعلماء الفيزياء اليوم يُقِرّون بأن العالم مخلوق، له بداية وليس أَزلي ابداً في حسابات العُلماء. لا نستطيع إلا أن نؤمن بأن الله هو موجود. هو الذي خلقَ الأشياء برُمَّتها وخلقَ الإنسان خِلقةً غريبة عجيبة، فكلُّ شيءٍ في الإنسان يُعطي مجداً لله كما قال الدكتور روجيه صايغ.

الله هو الخالق له المجد ولذلك الجسد لا يُجدي نفعاً، الروح هو الذي يُحيي الجسد فالجسدُ أداةٌ في يد الروح. الروح بقواها العقلية وسواها هي التي تُسيِّر الجسد، وهي التي تُسيّر الحضارة والمدنية والثقافة والمعرفة والعلم وكل شيء. كلُّ ما صنَعه الإنسان في التاريخ مدبوغ بطابع الإبتكار والإختراع. هذا العقل المخترع المبتكر من اين أتانا؟ ما أتانا من الجسد الترابي، أتانا من الروح. الله خَلَقنا على صورتِه ومثالِه، هو الخالق الغير المخلوق والغير المحدود والإنسان هو الخالق المحدود. الله له المجد كُليُّ القدرة والإنسان هو محدود القدرة، هو صورة الله. أبدعَ الحضارة والمدنية والثقافة...كلُّ هذا هو من صنع الإنسان والإنسان هو من صنع الله. لذلك

عندما نُفكر لاهوتياً وفلسفياً، علينا أن ننتبه الى قِوانا الروحية العاقلة وأن نتخلّص من التفكير المادي وأن لا نعتبر أن الملموس والمنظور والمسموع هو الحقيقة، الحقيقة هي أبعد من ذلك بكثير لأن الحقائق الروحية لا تُدرَك الا روحياً. والإنسان الروحاني كما قال بولس "يحكم روحياً الأشياء".

لأسعى خلالَ وجودي على الأرض في الإرتفاع عن كل ما هو أرضي لأبلُغَ ما هو سماوي. الله له المجد خلَقَنا للجهاد، للنضال، لإبراز مواهبنا التي متَّعَنا بها، فاذا كان الإنسان مشتقّ فالعيب عيبُ الإنسان. الله حمانا بالحرية والإرادة العاقلة لنُجاهد روحياً لا لنموت روحياً، أعطانا قوانا الروحية لنُحسِن إستعمالها لا لندعَها تُجرَف وراء أهوائنا الجسدية. الجسَدَنيات تخلق الروحانيات. كما قال بولس هناك حربٌ بين الروح والجسد. في هذه الحرب يبرز الإنسان الروحاني كائناً سماوياً يرتفع من المستوى الأرضيّ الى المستوى السماويّ.

الله خلَقَنا لنُجاهد وحياة الإنسان على الأرض هي جهاد. هناك مَن يُجاهدون للجسد فقط، وهناك مَن يُجاهدون للروح بدون أن يُهملوا الجسد. والعناية بالجسد هي محدودة فمطاليب الجسد تكون من مأكل ومَلبس. اما الحياة الروحية فهي إنطلاقٌ نحو السماء، نحو العليّ العظيم لكي تُوافقُ الصورة أصلَها ونصبح كاملين كما هو كامل، ورحيمين كما هو رحيم كما علّمنا الرب يسوع المسيح. طبعاً هناك إعتراضات عديدة تتعلّق بظروف الحياة والحياة المعاصرة معقَّدة جداً لأن التعقيد ناتج عن الأهواء والشهوات والرغبات التي لا تشبع ولكن مع هذا تبقى الروح في عطشٍ الى السماء.

لا شيءَ على الأرض يُغني عن السماء. في النهاية القبر هو النهاية فما دام القبر هو النهاية فالتطلّع الى فوق هو الأمر الضروري. مدَنيَّة نصف قرن العشرين قامت على السعي لجمع ثروات لا تأكلها النيران كما يُقال فصار الإنسانُ عبداً لمظاهر عديدة من مظاهر المدنية والحضارية والإنسان يُساير هذه الأمور فيخسر روحَه. ولكن الإنسان العاقل يرتفع فوق كل هذه الظروف ليبقى مرتبطاً بالسماء. العادات الإجتماعية وظروف الحياة الإجتماعية وظروف الحياة العامة لها أثرُها علينا ولكن لا يجب أن نكون عبيداً للزمان ولما هو زمنيّ وعلينا أن نستعمل التمّييز الروحي لنبقى دائماً في وضعٍ روحي سليم فلا ندَع التيارات تجرُفنا. الإنسان المسيحي الحقيقي هو فوق كل الإعتبارات. فهو يتحلَّى بروحٍ الهيّ يميِّز بين ما هو ضروري وبين ما هو غير ضروري ويتمسّك دائماً بالأفضل وبالروحاني، ولا يدع نفسَه يهلك بالجسَدَنيات. يقف في هذا العالم موقفاً روحياً، يشجُبُ كل ما هو ساقط ويلتصق بكل ما هو سامي. المسيحي لا يكون عبداً لا لجسدِه ولا لعالِمه، يبقى سيِّدَ نفسِه المطلق في الروح القدس الساكن فيه. نحن نؤمن بأن الروح القدس يسكن فينا ولذلك في الصراع بين الروح القدس الساكن فينا وبين العالم، نختار نحن الروح القدس ولا نُبالي بالإعتبارات العالمية حين التناقض بين المسيح والعالم، نحن مع يسوع ضد العالم. هذه نقطة حسّاسة جداً يجب أن يفهمها المسيحيون.

المسيحي لا ينجرف وراء العالم وشؤون العالم، المسيحي ينجرف فقط وراء يسوع المسيح. يسوع المسيح هو الحَكَم المطلق فلذلك يجب أن نضع دائماً يسوع في الواجهة وكلُّ شيءٍ آخر خارج الإعتبار. الذين يُسايرون العالم على حساب يسوع المسيح يهلكون أنفسَهم. علينا دائماً أن نَطعُن في مُسايرة العالم وأن نرفض في مُسايرة العالم لنبقى فقط في خطِّ ربِّنا يسوع المسيح له المجد والإكرام والسجود مع أبيه وروحه القدوس الى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.